معـركة حـطين

{وقاتلوا فى سبيل الله الذين

يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله

لا يحب المعتدين}

سورة البقرة آية 190

معركة حطين

583هـ/1187م العام الحاسم الذى أنهارت فيه دولة الصليبيين فى القدس، وأن استمر الوجود الصليبى فى الشام إلى القرن الثالث عشر الميلادى، فقد تكفل بذلك إنهيار الوحدة الأيوبية على يد خلفاء صلاح الدين الذين أفتقدوا إيمانه بضرورة تطهير الشرق من الصليبيين مهما كانت التحديات والتضحيات، كانت بداية هذا العام وصلاح الدين أقوى حاكم فى الشرق حيث أمتدت دولته من مصر وحتى بلاد الجزيرة بجنوب تركيا الأن، بينما أعترف بسلطانه حكام الموصل وديار بكر، مما وفر له معين لا ينضب من الجنود الذين يغذوا جيوشه، وعم الشرق روح مؤمنة بضرورة تحرير القدس ،

بينما الصليبيون وصلوا لأضعف أطوارهم وأصبحت مملكتهم عارية إلا من بعض ظلال قوتها، بسبب الصراع الشرس على السلطة وكذلك الصراع الصاخب بين مكونات المجتمع الصليبي فى الشام، فقد أدى طول فترة الوجود الصليبى فى الشام إلى ظهور جيل ثانى وثالث من الصليبيين الناتج عن تزاوج اللاتين القادمين من أوروبا من مسيحيات شرقيات، وهذا الجيل لم يكن له صلة أو معرفة حقيقية بأوروبا أبداً، إلا أنها أرض أسلافهم، سُمى هؤلاء بالأفراخ (الصليبيون البلديون، البولان)، بينما لم ينضب فيضان المهاجرين القادمين من أوروبا، وقد نظر الطرفان بإحتقار لبعضهما البعض، فالأفراخ كانوا ينظرون للقادمين من وراء البحار نظرة إستعلاء بسبب همجيتهم وتخلف أوروبا بالنسبة للشام المتحضر المتأثر بالحضارة الإسلامية، "فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد عاشروا المسلمين"[1]، وكذلك بسبب النوعية التى أعتادت أوروبا إلقاءها إلى الشرق والتى كانت تتألف فى الغالب من المفلسين والمجرمين الباحثين عن التوبة والثراء، بينما

1 الإعتبار ص134

ينظر القادمون من أوروبا للأفراخ نظرة حقد ومقت بسبب ترفهم الذى يرفلون فيه، وإعتادوا وصفهم بالخنوثة،

فقد صدم مظهر المدن الشرقية بجمالها ومنازلها الفخمة متعددة الطوابق عيون القادمين من أوروبا بمبانيها الفقيرة الكئيبة، فبينما المنازل بالشام تضمن لقاطنيها الرفاهية برياشها الوثير وجدرانها المغطاة بالقيشانى الذى لم تسمع أوروبا عنه بعد، وأرضيتها التى تـزينها السجاجيد الشرقية الفاخرة المزركشة، والستائر الحريـرية التى يتلاعب بها النسيم تكسو النوافذ، فى الوقت الذى كانت منازل أوروبا ـ بأثاثها الخشن لا يُرجى منها إلا إستخدامها فى ما صنعت له بدون أى شكل جمالى ـ أقـرب ما تكون بالأكواخ، وفى الوقت الذى أمتلئت شوارع مدن الشام بفرنج الشرق المـرتدين أفخـر الملابس الحـريرية، التى كانت فى متناول حتى محدودى الدخل من الصليبيين، فى الوقت الذى كانت ملابس النبلاء فى أوروبا تهدف إلى المنفعة فقط لا للجمال، وأستبدل فرنج الشرق قلانسهم الخشنة سيئة الصنع بعمائم حريرية أنيقة، وإينما ساروا عبقت العطور الدمشيقة التى أستخدموها بسخاء الجو، فى الوقت الذى تجول الفرنج القادمون من الغرب بملابسهم الخشنة المصنعة بشكل بدائى،

وشوارع المدن بالشرق المزدحمة وقد أمتلئت قارعة الطرق بمئات الحوانيت المكدسة بالأقمشة والعنبر وأدوات الزينة الرخيصة والتوابل والتى تعبق الجو، وقد غطيت الجادة والأزقة المتجاوره بأكملها بسقوف من الخشب تحميها من أشعة شمس الظهيرة، فى الوقت الذى كانت أكبر مدن أوروبا ما تزال فى طور الطفولة،

وكما كان بأمكانهم الإستمتاع بالحمامات المنتشرة بالشرق والتى عرفـوها عـن المسلمين، وكذلك الصابون المجهـول بأوروبا، الأمر الذى أدى إلى أتهام لاتين الشرق بالرفاهية والترف لمواظبتهم على زيارة الحمامات، لذلك طالما تباهى فرسان الداوية بعدم إستخدامهم الحمامات أو الإستحمام أبداً، وكما كان القادمون من الغـرب بملابسهم الخشنة النادر غسلها قد لا يسمعـون عن الإغتسال ولم يجربوه،

وأعتاد لاتينى الشرق أستخدام الصحاف النحاسية والفضية والزجاجية التى أنتشـرت فى الشرق، والمناضد المطعمة بالعاج، حولها المقاعد الوثيرة، وتناول الحلوى الـدمشقية وأنهاء طعامهم بالبطيخ والتمر، وتحلية مشروباتهم بالسكر، فى الوقت الذى كانت أوروبا بها مناطق قائمة على إقتصاد اللقط، بينما يستطيع الصليبى بالشرق الإستمتاع بالطعام الشرقى الذى لا تستطيع قائمة الطعام بأوروبا منافسته، وكان الثراء الذى تمتع به فرنج الشام والذى جعـل صغار أمراءهم ينعمون بحياة لا يحلم بها ملك

بالغـرب الأوروبى، حتى أن آمر قلعة بالشرق يعيش حياة تزيد فى روعتها عن حياة ملك فى أوروبا الغربية، بل أن عوائد ميناء عكا الصليبى تفوق دخل ملك أنجلترا، كل هذا لعب دور بارز فى تأجج هذا الحقد، فأطايب الحياة بالشرق جعلتها أكثر بهجة مما كانت عليه تحت ضباب الغرب، الأمر الذى أدى إلى مقاومة صامته من فرنج الشرق لإستقرار القادمين من الغـرب فى الشام، بينما القادمون من الغـرب أصبح لديهم الإختيار بين الإشتراك فى الحملات الصليبية وبين عدم الإشتراك، كالإختيار بين الثراء، والتسول[2]،

وأدى إختلاف سياسة فرنج الشرق الذين كانوا بحكم تـربيتهم فى الشام لا يرون غضاضة فى إيجاد نوع من التفاهم مع المسلمين بعكس الوافـدين الجدد من الغرب، الأمر الذى إدى إلى فساد الود بينهم ،

وشهد الصراع بين البولان والصليبيين الجدد منحنى خطير، بزيادة نفوذ القادمين من وراء البحر من الصليبيين الجدد، بعد أن أستطاعوا السيطرة على أكثر المواقع حساسية ونفوذاً فى المملكة، القصر، والجيش، وفرسان الهيكل، وبارونية الكرك، بعد إعتلاء جى القادم من فرنسا عرش المملكة وسيطرته على القصر الملكى، وتعيين أخيه أمالريك قائد عام الجيش، وخضوع الداوية لهم بعد إعتلاء جيرارد القادم من هولاندا رأس سلطة الهيئة، ويضاف لذلك كثرة إشتراك فرسان أوروبا بهيئة الداوية بسبب كثرة مراكز تجنيدها بالمدن الأوروبية، وكذلك سيطر الصليبيون الجدد على واحدة من أكبر بارونيات المملكة وأكثرها أهمية إستراتيجية تحت لواء الأحمق الكبير أرناط، الأمر الذى سيزيد سخونة الصراع، الأمر الذى يلقى مقاليد المملكة بين أيدى صقور السياسة الصليبية، مما سيكتب النهاية لدولتهم،

أما الصراع على السلطة ـ بسبب قـزمية الملك جى ـ قد خلف عداء مـرير بين ملـك بيت المقدس وأقوى الأمراء الصليبيين ـ الأمير ريموند أمير طرابلس حفيد ريموند صنجيل ـ عداوة عمل الملك جى على إستفحالها بغباء ورعونة، فيقتحم جى مدينة بيروت ويطرد نواب ريموند منها بدعوى إنتفاء سبب منحها لريموند، فهى أنما مُنحت له مقابل وصايته على العرش، وأرتفعت أصوات محرضة الملك على مهاجمة طبرية

---

[2] لبيان مدى الثراء الذى تمتع به الصليبيين بالشرق نقرء ما كتبه فوشيه الشارترى بكتابه تاريخ الحملة إلى القدس وهو قسيس رافق الحملة الصليبية الأولى "أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الأن شرقيين، ومن كان رومياً أو أفرنجياً قد تحول فى هذه البلاد إلى جليلى أو فلسطينى، ... وبين فترة وأخرى ينضم إلينا أقرباؤنا، ... وقد جعل الله من كانوا فقراء فى الغرب أثرياء فى هذه البلاد، ومن كان لديهم القليل من المال ، ملكوا ما لا يحصى من القطع الذهبية، ومن لم يكن لديهم دار، أمتلكوا مدينة، فلماذا يعود إلى الغرب أذن من وجد الشرق كذلك؟ (تاريخ الحملة إلى القدس ص218 -219)

والقبض على ريموند، ولكن قرب طبرية من دمشق وبها صلاح الدين أقنع الملك جى بالتروى، مما اقفل كافة الأبواب أمام ريموند إلا باب صلاح الدين، وقد عمل صلاح الدين بذكاء دبلوماسى على جعله مفتوحاً دائماً أمام ريموند بل قام صلاح الدين بإطلاق سراح فرسان طرابلس الأسرى لديه، ووعده بمساعدته لإعتلاءه عرش بيت المقدس، مما دفع ريموند للأرتماء بين أحضان صلاح الدين[3]، الذى شجع هذا التحالف وعمل على تـقوية أواصره، وأصبح ريموند ينظر للملك جى كعدو أكثر خطراً من صلاح الدين، وكما وعد صلاح الدين ريموند بالنصرة بعد ورود أخبار الأستعدادات التى اتخذها الملـك جى لمهاجمة طبرية التابعه لزوجة ريموند، هذا التحالف زاد من هوة الشقاق بين الصليبيين بسبب عدم قدرة أرناط وفرسان المعبد تصور وجود تحالف بين سلطان المسلمين وأمير صليبى، الأمر الذى دفعهم لـرمى ريموند بالخيانة مما زاد الخلاف بينهم لدرجة عدم الإستماع لخبراته بإجتماعات المحكمة العليا ،

ونظراً للظروف المناخية والطبيعية لبلاد الشام أقتصـرت الأعمال الحربية على فصل الصيف فقط، فقد كانت الأمطار بالشتاء وما ينتج عنها من أوحال وكذلك الثلوج التى تشتهـر بها الشام حجر عثرة أمام تحركات الجيوش وإعاشتها، وكذلك كان يتعـذر وصول السفـن من أوروبا فى فصل الشتاء الذى يكون الأبحار والرسو فيه مغامرة خطيرة قد تكلف الجميع حياتهم، لهذا أقتصر القتال على فصل الصيف، الذى كان فى بداياته ترِد لصلاح الدين قوات الممالك المكونة لدولته فقد كان تصل تباعاً قواته المصرية والحلبية ومن دمشق وباقى مدن الشام، والمدن المتحالفه معه كالموصل ومدن ديار بكر وكذلك المتطوعة والبدو العرب على مراكز تجمع الجيوش الأيوبية ،

كل هذه الظروف دفعت وليم الصورى إلى إختتام كتابه عن تاريخ الصليبيين بالشرق بنظرة متشاءمة وبالغة الكأبة عام 1184م، حيث لم يستطع كتابة نهاية مملكة بيت المقدس على حد قوله، لتثبت الأيام صحة نظرة وهواجس وليم السوداء، فبعد ثلاثة سنوات من هذا التاريخ وجه صلاح الدين والمسلمون طعنة قاتله للوجود الصليبى بالقدس فى معركة حطين 1187م ،

فى هذا العام 1187م تجمع لدى صلاح الدين أضخم جيش تستطيع دولته تقديمه لأرض المعـركة، مما ملئه تصميم على أن يكون هذا العام هو عام الحسم، وخصوصاً

[3] وقد كان رسو زورق الخلافات على شاطئ الصليبيين بعد إبحاره من شاطئ المسلمين من النقاط الهامة فى النصر بحطين ، فكأنما إنقلب السحر على الساحر

العمل الذى قام به أرناط الذى وجه الضربة القاضية لوجود مملكة بيت المقدس بالقدس، فنظرياً كانت ما تزال الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين قائمة، حتى أعطى أرناط لصلاح الدين الذريعة التى اقطلعهم بها، وعمل على تسريع الأمور التى كانت ما تزال تختمر، فهذا الأمير اللص كان لا يستطيع العيش بشرف وكان لا يستطيع مقاومة السرقة والنهب[4]، فقد مرت بجوار حصنه الكرك قافلة قادمه من مصر مطمئنة للهدنة السارية وأن أتخذت أحتياطاتها أثناء المرور، وقد أسالت ضخامة هذه القافلة لعاب أرناط الذى ما أن شاهد جمالها تتهادى تحت ثقل بضائعها حتى سارع بنصب كمين لها بكامل قواته لتسقط القافلة فى هذا الكمين، ويرفض أرناط إرجاع محتويات القافلة والأسرى تنفيذاً لبنود الهدنة، وحتى الملك جى لم يستطع بالرغم من محاولاته حمل أرناط على أحترام الهدنة[5]، ورد أرناط رداً قاسياً عليه "كما هو سيد بلاده(الملك جى) فأنا سيد بلادى، ولا عهد بينى وبين العرب" بما يعنى عدم إلتزامه بمعاهدات الملك،

الأمر الذى يعنى سقوط الهدنة بين المسلمين والصليبيين ومسوغ للهجوم الأسلامى المنتظر، وتحريك الماء الراكد، بينما غزا صلاح الدين المجتمع الصليبى وطغت سيرته على أحاديث قاطنى المملكة، ولزيادة هوة الخلافات الصليبية وإستغلالاً للتحالف بينه وبين ريموند طلب صلاح الدين من ريموند السماح لقوات إستطلاعية بقيادة أبنه الافضل نور الدين علىّ، مؤلفة من قوات حلب بقيادة بدر الدين دلدورم بن ياروق صاحب مدينة تل باشر ومقدم قوات دمشق صارم الدين قايماز النجمى[6]، بالمرور من أقليم الجليل التابع له لأستطلاع الإستعدادات القتالية للمملكة، وهو ما اوقع ريموند فى مأزق لا يُحسد عليه، فهو أن وافق فقد خان قومه مما سيجلب عليه عداء الصليبيين والأوروبيين جميعاً وأن رفض فقد خسر الحليف القوى الذى يتحامى به، وقد أختار ريموند الجانب الأقوى فقد سمح على مضض لقوات صلاح الدين بالمرور، بشرط دخولها أراضيه بعد أول ضوء ومغادرتها قبل أخر ضوء، إذ كان لا يملك ترف الرفض فالقوات كانت ستمر سواء وافق أو رفض، وبالفعل توغل الأفضل حتى وصل للناصرة بالقرب من بيت المقدس، بعد أن حذر ريموند فلاحيه طالباً منهم المكوث فى قراهم المحصنة، وقام بتحذير مقدمى الداوية والإسبتارية وأسقف صور،

---

4 قد مر علينا أن الأمراء والفرسان الصليبيين كانوا يعتمدون على السلب وقطع الطرق كمصدر دخل أساسى لهم

5 الأمر الذى يبين ضعف السلطة الملكية أمام تنامى قوة البارونات ويضاف لذلك ضعف شخصية جى

6 مفرج الكروب ج2 ص187

وكانت هذه المناورة فى منتهى الذكاء من صلاح الدين، فقد أحدثت صدع عميق فى الجدار الصليبى، كما كانت مهمة فوج الأفضل هى إستفزاز القوات الصليبية وإستثارتها لدفعها للمعركة المنشودة، وأثناء أنسحاب الأفضل قامت قوة من خمسمائة فارس من الداوية والأسبتارية وأربعمائة من المشاة بقيادة مقدمى الداوية والإسبتارية، كانت فى طـريقها لطرابلس لمفاوضة ريموند للتصالح مع الملك جى، بمهاجمته والأشتباك معه بعين جوزة بجوار مدينة الناصرة، بعد أن أنضمت لها حامية الناصرة وحامية قـلعة الفولة، بينما ينادى جيرارد مقدم الداوية بغرور وعنجهية فى قرية مجاورة على من يريد الغنائم فليأتى بعـد المعـركة، وقد أنتهى هذا الأشتباك بفناء القوة الصليبية ولم ينج منهم إلا العشرات، منهم باليان الأبلينى حاكم الرملة ورينولد صاحب صيدا ومقدم الداوية جيرارد دى ريدفورت الذى فر محتمياً بأسوار الناصرة، مخالفاً قسمه وقانون الهيئة التى يتولى رئاستها، بينما زميله مقـدم الأسبتارية روجيه دى ميلان لم يملك حسن حظه وكان بين القتلى[7][8] وكذلك مارشال الداوية جاك دى مالى، حتى خلت الناصرة وقلعة الفولة من حامياتهما، مما زاد مقت مقدم الداوية لريموند، وكان هو وأرناط وضعف شخصية جى من أكبر أسباب الهزيمة فى حطين،

وأن كانت هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين ناقوس خطر أدى إلى التقارب بين الجانبيـن المتصارعين بسبب أحساسهم بالخطـر على وجودهم ككل، فقد حاصر الندم ريموند، واستبشع نتيجة المعركة، فقد كان جاك دى مالى صديقه المقرب، كما كانت الخسارة الفادحة فى فرسان النخبة للصليبيين أكبر من أن تعوض، كما تعالت أصوات جيرارد تصب أقسى اللعنات على رأس ريموند[9] حتى وصلت أصواته لبابا روما، الأمر الذى دفع ريموند أعلان إستعداده للإنخراط فى سلك الرهبنة للتوبة مما حدث، ولكن خسارة فارس مثله فى ذلك الوقت كان أخر ما تتحمله المملكة، فتم الإتفاق على المصالحة بينه وبين جى وتعهده بالمساعدة المخلصة له،

وإستمراراً فى محاولات صلاح الديـن الناجحة فى شق الصف الصليبى، وبحثه عن أصدقاء داخل معسكر الأعداء، أمر صلاح الدين نائبه فى حلب بتوقيع هدنة مع

---

[7] الكامل ج10 ص145

[8] بعد أن رماه جيرارد بالجبن عندما طلب عدم الإشتباك مع المسلمين

[9] حالة العداء بين جيرارد وريموند قديمة، فقد كانت هناك فتاة تدعى سيليا وريثة كونتية الباترون عقب وفاة والدها وليم درويل، وكان ريموند الوصى عليها وتم الوعد لجيرارد بالزواج من هذه الفتاة الثرية، ولكن هبط إلى طرابلس ثرى من مدينة جنوة يدعى بليفين والذى أستطاع شراء الزواج من هذه الفتاة مقابل رشوة ضخمة، الأمر الذى أدى بجيرارد الإنخراط فى سلك الداوية صابا اللعنات على رأس ريموند

أنطاكيا منفرده بما يعنى أمكانية مشاركة قوات حلب فى المعـركة المنتظرة وخسران الصليبيين لجهود قوات أنطاكيا[10]،

عبقرية صلاح الدين تظهـر فى نجاحه فى مناوراته التى سبقت اليوم الأخير قبل المعـركة، قد أدت هذه المناورات إلى إجبار الصليبيين على خوض القتال فى المكان والزمان الذين أختاراهما صلاح الدين، والمناسبين لقواته مما كان مفتاح النصـر للمسلمين، بعد أن أجبر قوات الصليبيين بالزحف والبقاء تحت السلاح لمدة يومين،

فخلال حروب العصور الوسطى تنعدم فرصة المفاجأة الإستراتيجية بسبب محدودية الحركة وبطئها النسبى، وتظهر عبقرية القائد فى إجبار العدو على خوض المعـركة فى المكان والزمان المناسبين لقواته،

وكما نجحت إستراتيجية صلاح الدين فى فصل مشاة الصليبيين عـن فرسانهم المدرعة الثقيلة، فقد أدت كثرة المعارك التى لم تنقطع والتى خاضتها القوات الإسلامية ضد الصليبيين إلى أكتشاف أن الفرسان المدرعة الصليبيين بالرغم من قوتهم التدريعية الهائلة كانت لا تضاهى الفرسان المسلمين الذين تميزوا بخفة الحركة، والمسلحـين بعدد كبيـر مـن السهام، والمدربين لدرجة الأحتراف على إستخدام القوس من أعلى صـهوات جيادهم، والذى اتبعوا تكتيك القتال من الحركة مع قـذف أعداءهم بوابل هتان مـن السهام، التى لم يجد الصليبيون أى حماية من هذه السهام إلا خلف مشاتهم المسلحين بدورهم بالسهام والأقواس والنشاب والمحجوبين بستائر معدنية تقيهم سهام الفرسان المسلمين، والذين كانوا يوفرون حماية للفارس الصليبى وجواده، وذلك بإتخاذ مواقعهم بين فرسانهم وبين جيش المسلمين ويبادلوا فرسان المسلمين القذف بالسهام، حتى تظهر فرصة فيفتحوا ممرات لفرسانهم ليهاجموا الفرسان المسلمين فى اللحظه المناسبة لهم، هجمات مثل هذه بفرسان متسـربلين بالحديد، يصعب إصابتهم بسبب الدروع التى تغطيهم تماماً، لا تذر أحداً أمامها، وعلى حد قول مؤرخنا أبى شامة "ألف فارس من المسلمين لا تصَبر على حملة ثلاثمائة فارس من الفرنج"[11]،

وكذلك إثناء زحف الجيش الصليبى يكّون المشاة حلقة حول فرسانهم، وفى هذه الأثناء كان لا يتيسر مهاجمة الجيش الصليبى بسبب التعاون بين المشاة والفرسان، أما فى

[10] كان أمير أنطاكيا بوهيمند الثالث معرف عنه نزواته الجنسية الأمر الذى دفع الكنيسة لفرض قرار الحرمان عليه بسبب إتخاذه عشيقة له هى أمرأة تدعى سيبيل بعد أن طرد زوجته الشرعية، فأستطاع صلاح الدين تجنيد عشيقة أمير أنطاكيا التى أرسلت لصلاح الدين تحركات قوات بوهيمند وأسرار أمارته بشكل دورى مقابل هدايا غمرها بها،

[11] الروضتين ج2 ص104

معركة حطين فقد نجحت عبقرية صلاح الدين العسكرية فى فصل المشاة عن الفرسان والقضاء على قدرتيهما على القتال المتعاون فأنفرد بالأثنين كلاً على حدا .

نصب صلاح الدين خيمته بقرية عشترا، حيث تجمعت قواته، بعد قدوم قوات مصر ودمشق وحلب والموصل وماردين، حتى أختفت أراضى القرية تحت بحر متلاطم من ملابس الجند الفضفاضة المتماوجة وألاف الخيام الصغيرة المتراصه فى نظام، لينظم صلاح الدين قواته تنظيمات القتال، مع تلقين كل جندى موقعه بالجيش، ثم زحف بتشكيلات القتال حتى وصل للأقحوانة شرقى طبرية بدايات 1187م وقد تألفت هذه القوات من كتائب ولايات الدولة المختلفة، علاوة على قوات حلفاء صلاح الدين حكام مدن ديار بكر وشمال العراق بالأضافة لقوات الحلقة السلطانية وهى قوات محترفة تابعة لصلاح الدين مباشرة سواء من مماليكه الذين يطلق عليهم الصلاحية أو القوات المحترفة الذين يتقاضون مرتبات شهرية منتظمة من ديوان صلاح الدين، هذا بالأضافة للمتطوعين والـذين كانوا يهرعون من كافة البلاد العربية والمتحمسين لتطهير الشام، الذين أخذت أعدادهم وحماستهم فى الإزدياد بفعل إنتصارات نور الدين محمود، وهؤلاء كانوا خفيفى التسليح وغير محترفين ويقاتلون مترجلين ويكلفوا بمهام ثانوية ،

دبوس إسلامى

أما عن أسلوب وتسليح جيوش صلاح الدين فقد كانت تعتمد على خفة الحركة سواء فى وسائل حماية الفارس كدرعه الذى كان يتميز بالخفة والفعالية فى ذات الوقت وكان يطلق عليه كزاغند، وهو عبارة عن معطف طويل حتى الفخذ من المخمل الأصفر أو الأحمر مبطن بفراء ومثبت به شرائح معدنية تحمى الأجزاء القاتلة ببدن الفارس، ويرتدى أسفله قميص زرد طويل ومن أسفله قميص كتان، كما حمل الفارس المسلم سيف مستقيم مزدوج الحد، والرمح والترس المعدنى المستدير، ودبوس[12] لتحطيم دروع خصمه، بينما يحمى ساعده بساعد حديد، وكذلك ساقه وقدمه، ويعلوا

12 هراوة غليظة لها رأس مدملجة من الحديد

رأسه خوذة معدنية يتدلى منها حلقات معدنية لحماية رقبته، ولها جزء أمامى متحرك لحماية أنفه ،

وكل تسليح الفارس المسلم أخف وزناً من التسليح الفرنجى، وعرف الجيش الصلاحى سلاحى المشاة والفرسان وكلاهما تسلحا بالأقواس والسهام، والذان أعتمدا عليهما فى إنهاك الفارس الصليبى ثقيل الحـركة والذى كان لا يستطيع الأستمرار طويلاً فى المعركة بسبب ثـقل وزن دروعه وتجهيزاته وحرارة الجو القاتلة فى شهور صيف الشرق، التى كانت كـفيلة بتحويل درعه إلى أتون من لهب، كانت تحد من قدرته على القتال إلا لبضع سويعات وعلى فترات متقطعة، ثم يقوم فرسان المسلمون بهجوم عام بعد إنهاك فرسان الصليبيين بشرط النجاح فى الفصل بينهم وبين مشاتهم، فقد وفرت خفة حركة الفارس المسلم وقدرته العالية على المناورة فرصة إمتلاكه ميزة إختيار الوقت الملائم للهجوم، وقدرته على الإنسحاب المنظم والقتال من مسافات أمنة ضد فرسان الفرنجة ثقيلى الحركة، الأمر الذى أتاح لهم ممارسة الأسلوب القتالى الشرقى الفعال، الكر والفر، مما سمح بإيطالة زمن المعارك الأمـر الذى كان لا يحتمله فرسان الفرنجة سجناء دروعهم الحديدية،

كما برع الفرسان المسلمون فى تكتيك الكمائن، بالتظاهـر بالفرار وجذب مطارديهم إلى أماكن مختارة بعناية ومتمركز بها قوات نخبة متخفية مستعده للتدخل ضد فرسان الفرنج، وكما أعتاد الفرسان المسلمون قتال الجيش الصليبى أثناء زحفه، بالهجوم عليه فى شكل موجات متلاحقة بسهامهم المتدفـقة، مع تخصيص النصيب الأكبر من هذه الهجمات لمؤخرة الجيش الصليبى ،

يضاف للفرسان المسلمين قوات المشاة وأغلبهم معينين برواتب نقدية بدواوين الجند الخاصة بكل مدينة إسلامية، فكثرة الحروب فى الشرق أدى إلى ظهور طبقة من ممتهنى القتال سواء الفرسان أو الرجالة، ومهام المشاة تأتى بعد نجاح هجوم الفرسان المسلمين فى إكمال تطهير ميدان المعـركة وفرض السيطرة عليه، يضاف لذلك مهام رئيسة خلال أعمال حصار المدن المسورة والقلاع، من تسلق الأسوار وإقتحام الثغرات،

وأمتاز الجيش الإسلامى بنظام إستطلاع ممتاز يسمى "اليزك" وهو عبارة عن قوات مختارة تتكون من حوالى ألف فارس، تراقب قوات العدو وترافقه بإستمرار من مسافة أمنة، وتنقل أخباره بإستمرار لقيادة القوات العليا، كما أمتاز الجيش الإسلامى بموسيقات عسكرية (الطبلخاناه) وهى تستخدم لإعطاء أوامر للجنود أثناء المعارك،

حيث كانت هناك نغمات للهجوم وغيرها من الحركات العسكرية، كما كانت تبث الحماس فى الجنود وتحطم معنويات الصليبيين،

وإن أدى تطور قتال الفرسان وتجهيزاتهم الباهظة إلى إحتكار القتال من صهوات الجياد على المقاتلين المنتسبين إلى أمير أو سلطان مما حرم فرص التدريب والقتال كفرسان إلا عليهم مما حد من عدد القوات الراكبة، نفس الشئ بالنسبة للصليبيين فقد أدى إرتفاع تكاليف تجهيز الفارس ثقيل العدة وطول فترة التدريب اللازمة، وكذلك عدم سماح النبلاء بإنخراط من هم خارج طبقتهم الأرستقراطية للعمل كفرسان، كل هذا أدى إلى قلة عدد الفرسان ثقيلى العدة التى تستطيع المشاركة فى المعارك، وإن أدى جودة تسليحهم وكفاءة تدريبهم إلى فعاليتهم العالية فى القتال،

بينما على الجانب الأخر نجد **الفرسان الصليبيين** ثقيلى العدة من بارونات وأمراء وأصحاب رتبة الفرسان ومنتسبى الهيئات الدينية كفرسان الأسبتارية والهيكل (الداوية) وإعتمدت العقيدة القتالية الصليبية على هؤلاء الفرسان ثقيلى العدة، الذين كانوا يدخرونهم للمواقف الصعبة والأدوار النهائية خلال المعارك، ولذلك كان الفرسان خلال الزحف محاطين بمشاتهم النبّالة لحمايتهم بواسطة نبالهم، وينقسم المشاة إلى قسمين قسم يسير أمام الفرسان يقاتل، وقسم مستريح، حتى إذا ما تعب القسم المشترك فى القتال، أخذ القسم المستريح مكانه وإنخرط مقاتلاً، حتى يستعيد القسم الأخر أنفاسه،

وفى المعتاد كان هجوم فرسان الفرنج ثقيلى العدة يتم بمجموعات متفرقة كل مجموعة من حوالى مائة فارس أو مائتى فى عدة جهات من خطوط قتال أعداءهم، لزعزعة خطوط أعداءهم التى لا تتحمل ضغط هجوم الدبابات البشرية هذه، مما يزرع بينهم الفوضى ويجبرهم على الفرار، فهجوم مفاجئ من عدد كبير من الفرسان المزودين بزرديات ودروع، مستغلين ثقل جيادهم الضخمة ومسلحين برماح طعن قوية وطويلة، محتمين بتروس ودرقات تمنحهم الحماية من العنق للفخذ، كل هذا يمنحهم قوة دافعة كبيرة تؤدى إلى تحطيم خطوط دفاع أعداءهم وتمزيق فرسانهم وإخراجهم من ميدان المعركة والسيطرة على ميدان القتال بالقوات الراجلة التى تتبعهم، لهذا حرص الصليبيون على المناورة لجذب المسلمين لأراضى مستوية ليقوموا بهجومهم المميت،

وأدرك الفرنجة شديدى الحذر خطر الفرسان المسلمين النبّالة وقدرتهم الكبيرة على إصابة فرسان الفرنجة بسهامهم، فهم أكثر الناس إحترازاً فى الحرب[13]، الأمر الذى

[13] الإعتبار ص17

دفعهم إلى زيادة وسائل الحماية لفرسانهم بالشكل الذى أبعدهم عن الرشاقة وخفة الحركة، مما جعلهم أبطئ من أن يجاروا الفرسان المسلمين سريعى المناورة، الأمر الذى أحالهم كالخراف السمينة المثقلة بشحومها أمام رشاقة الفارس المسلم، الأمر الذى أوجب عدم قيام الصليبيون بهجوم عام إلا إذا تجلت فرص النصر واضحة، فالهجوم الفاشل يعنى إختلال نظامهم بشكل يصعب أن لم يستحيل إستعادة نظام تشكيل خطوط قتالهم، وإذا ما حاولوا مطاردة الفرسان المسلمون فكأنهم يطاردوا الرياح، كما أستغل الفرسان المسلمون قدرتهم العالية على المناورة بالتظاهر بالفرار والإلتفاف خلف فرسان الفرنجة ومهاجمة الرجّالة الصليبيين مما يحرم فرسان الفرنجة من القاعدة المتحـركة التى يستندون عليها إثناء قتالهم ،

وبجانب الفرسان الثـقيلة كان هناك الرقباء (سيرجندية الفرسان) وهؤلاء فرسان خفيفة العدة وتعمل كقوات مساعدة للفرسان ثقيلى العدة، وكما يوجد المشاة (السيرجندية)، كما يوجد قوات فرسان خفيفة التجهيز أخرى تسمى تركبولى وهؤلاء مرتزقة ذو أصل شرقى بيزنطى ومحلى ويتسلحون بالقوس والسهم على الطراز الشرقى، وكانوا يوضعون تحت القيادة المباشرة لمارشال الجيش وكانوا يكلفون بالمهام التى تحتاج لخفة حركة مثل الأستطلاع والعمل خلف خطوط العدو .

وكان القتال يجرى بين فرسان المسلمين والصليبيين أقرب ما يكون للنزال الفردى إذا ما جرى الإعتماد على الرمح، وقد أدى طول فترة بقاء الصليبيين فى الشرق وكثرة الأعمال القتالية بينهما إلى خلق حالات تحدى وتربص بين الفرسان بعضهم البعض، ويتعمد الفارس طعن عدوه وإسقاطه عن فرسه الأمر الذى يؤدى إلى عدم قدرته على القتال مترجلاً فيسهل قتله أو أسره، فإن الفارس الصليبى مادام فرسه سالماً لم يذل للصرعة فإن لبسه زرد من قرنه إلى قدمه، كأنه قطعة من حديد، ولكن فرسه إذا هلك ملك[14]

وتتخذ جيوش العصور الوسطى خلال الحروب تشكيل الصفوف، حيث يصطف الجيش بعدة صفوف تزداد وتنقص تبعاً لعدد الجيش، وإن أعتاد المماليك تلامذة الأيوبيين على الأصطفاف من ثلاثة إلى ستة صفوف، وطالما الصف متماسك فالجيش فى قتال، أما إذا إختل الصف فمعنى هذا الهزيمة وإندحار الجيش وفرار جنوده، ويعتمد الفرسان الصليبيون على ثقل وسائل حمايتهم خلال هجومهم الذى يقومون به

[14] الروضتين ج3 ص183

بمجموعات من مائة فارس فى الأغلب لتشتيت وتحطيم صفوف جيش المسلمين وطرد فرسانه من ميدان المعركة ،

وأمتاز الجيش الإسلامى بالقيادة الموحدة والقادة الأكفاء أصحاب الخبرات الكبيرة، بعكس الجيش الصليبى المفتقد لقيادة عليا قوية تستطيع السيطرة على كافة فرق الجيش الصليبى اللجب، وإفتقار الجيش لقادة أكفاء إلا ريموند الثالث المكروه والمغموس فى ولاءه من قبل كبار قادة جيشه ،

وبعد إكتمال تجمع قوات صلاح الدين قام بالزحف ظهر يوم الجمعة وهو الوقت الذى كان صلاح الدين حريصاً دوماً لبداية كافة تحركاته تيمناً بصلاة الجمعة، وعبرت قوات صلاح الدين حدود مملكة بيت المقدس بأضخم جيش، بلغ حوالى أربعون ألف جندى وهو مقارب لعدد جيش الصليبيين الذين دفعوا به لأرض المعركة ،

فبينما أعتمد نور الدين على سياسة القضم المتتابع بالإستيلاء على الحصون الحدودية الصليبية، والإنهاك الإقتصادى بتدمير زراعات الأقاليم اللاتينية، فإن صلاح الدين بما أستطاع تكوينه من أمبراطورية ضخمة سمحت له بتجيش جيش ضخم طمح فى خوض معركة فاصلة تقضى على المؤسسة العسكرية الصليبية بما يسمح بالقضاء على الوجود الصليبى ككل، وصد الهجمات الأوروبية الإنتقامية ،

وقد كانت معركة الناصرة أيذاناً لبدء صفحة جديدة بين جى وريموند الذان تصالحا فى بيت المقدس خلال إحتفال بهيج بعد أن أرسل الملك سفارة من مقدم الإسبتارية ومقدم الداوية وبارونات صيدا وإبلين ورئيس أساقفة صور وتحت ضغط تهديدات البطريرك بفرض قرار الحرمان على ريموند وإبعاده عن زوجته، عقب إستشعار الجميع الخطر على الوجود الصليبى بسبب التقارب والعلاقات الودية بين صلاح الدين وريموند الثالث، بما كان بمثابة نقض الهدنة بين صلاح الدين وريموند، وطالب الملك جى الأمير ريموند بحشد قوات طرابلس واللحاق به فى معسكر حشد جيوش بيت المقدس عند بلدة صفورية، ويجوب أرجاء المملكة منادين يصيحون بأعلى صوتهم بإستدعاء كافة قوات المملكة، فرساناً مشاة، وتم إستدعاء جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، وسارعت المدن والحصون بإرسال حامياتها، وزحف البارونات ونبلاء المملكة على رأس قواتهم، وقد أنهزم الصليبيين رعباً قبل المعركة،

وجاءت سياسة صلاح الدين بأهدافها فعندما طالب الملك جى بوهيمند صاحب أنطاكيا باللحاق به فى صفورية بقواته أرسل له بوهيمند أكبر أبناءه بقوات رمزية تبلغ حوالى خمسين فارس فقط، وتجمعت القوات الصليبية فى صفورية الغنية بمصادر مياهها مما

وفـر طبوغرافية ممتازة للجيش الصليبى بجوار نبع ماء حيث كان ملوك بيت المقدس يميلون لتجميع جيوشهم به لتوافر الماء والكلاء[15] وتم حشد جميع القادرين على حمل السلاح بالمدن الصليبية بحيث أُخليت المدن من حامياتها، بعد وعد الملك جى للجنود الذى سيسارعون للإلتحاق بالجيش بالعطاء الوفير،

وقامت الهيئتان العسكريتان الداوية والإسبتارية بجمع كافة قواتهما لهفة للإنتقام لمعركة الناصرة، وتم جلب صليب الصلبوت ليسيروا به أمام الجيش لرفع الروح المعنوية، أن تخلف بطريرك القدس هيراكليوس (هرقل) متذرعاً بمرضه،

وكان هنرى الثانى ملك أنجلترا قد تبرع بمبلغ ضخم لفرسان الداوية ككفارة عن إغتياله لمعارض له هو توماس بيكت أسقـف كانتربرى، بعد أن تعهد لبابا روما بدفع مبلغ مالى مرتين سنوياً يكفى لتجهيز مائتى فارس من الداوية والإسبتارية لأرض المعركة، دفعه كله مقدم الداوية للملك جى لتجنيد المزيد من المرتزقة والجنود مما يضخم الجيش، وعرفاناً بجميل ملك أنجلترا، أمر الملك جى قوات المشاة بحمل شعار ملك أنجلترا على ملابسهم اثناء المعـركة، وعلى هذا قد تم جمع جميع القوات التى يمكن للصليبيين جمعها، ولا يمكن تعـويض أى خسائر فيها، فالصليبيون وبالرغم من طول فترة بقائهم فى الشام ظلوا أرستقراطية عسكرية ولم يستطعوا تكوين ظهير شعبى لهم ليعـوض خسائرهم بعكس قوات المسلمين والتى كانت تستطيع تعويض خسائرها بكل سهولة وسرعة،

صلاح الدين بأعـوامه الخمسين التى قضى معظمها فى محاربة الصليبيين يعقد إجتماع مجلس قيادة أركان قواته لإختيار إستراتيجية القتال الواجب إتباعها، فمن قواده من أشار بترك قتال الجيش الصليبى لضخامته، والإكتفاء بشن غارات على المدن الصليبية، ومنهم من أشار بوجوب قتال الصليبيين مخافة إتهامهم بالتقاعس عن قتال الصليبيين والنقد من جموع المسلمين، فقد قال أمير من أمراء صلاح الدين "الناس فى المشرق يلعنوننا ويقولون تركوا قتال الكفار وأقبلوا يريدون قتال المسلمين[16]، والرأى أن نفعل فعلاً نعذر به ونكف الألسنة عنا" فقال صلاح الدين "الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكافرين، فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا، ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد"[17]

---

15 تاريخ بيت المقدس ص74

16 قبل معركة حطين كان ينظر لحروب صلاح الدين لإتمام الجبهة الموحدة، على إنها حروب ضد المسلمين ولم تظهر نتائجها الهامة إلا مع نصر حطين

17 الكامل ج10 ص145

إستراتيجيات وخطط الجانبين

وطفت على السطح مشكلة كيفية إستغلال الجيش الصليبى العـرمرم، والذى ضم جميع الرجال القادرين على حمل السلاح داخل أرجاء المملكة وأمارة طرابلس مما يعنى شل الحياة الأقتصادية تماماً، وقد أشار ريموند على الملك جى بإتباع الأستراتيجية العسكرية الصليبية التقليدية، والتى تنص على تجنب الدخول فى معارك كبرى ضد جيش معادى ضخم كالذى يقف على ضفاف بحيرة طبرية وعلى رأسه صلاح الدين، بل طالب بإتباع سياسة المطاولة والنفس الطويل، علماً بأن قوات صلاح الدين ما تلبث حتى تضطر للعودة لمتابعة أسرهم وإقطاعاتهم، بينما يتمركز الجيش الصليبى فى مكمنه بصفورية الغنية بمواردها المائية منتظراً صلاح الدين، والذى إذا ما توغل داخل أراضى المملكة يباغته الجيش الصليبى عقب عبوره أرض صخرية جرداء خلال حرارة الصيف القاتلة وجنوده مرهقه مجهده من السير الطويل بينما الجيش الصليبى بكامل حيويته وقوته، فإذا ما كان النصر حليف الصليبيين فمعنى هذا ان الجيش الأسلامى عليه الأنسحاب مسافة كبير داخل أراضى معادية حتى يصل لأقرب حصن أو قلعة أو مدينة مسورة أسلامية ليحتمى بها، بينما إذا ما طالت الهزيمة الصليبيين وهم فى صفورية يستطيعوا بكل بساطة الأحتماء بأى قلعة من القلاع الصليبية المنتشرة بالقرب من معسكرهم .

والملفت أن صلاح الدين كان يـرنوا إلى عكس أقتراح ريموند فقد كان يخطط لإجبار الجيش الصليبى على الزحف لمقابلة الجيش الأسلامى فى المكان المناسب له، وهو أقصى حدود مملكة بيت المقدس قبل وصول الجيش الصليبي لبحيرة طبرية، مما يعنى عبور الجيش الصليبى أراضى جرداء لا يوجد فيها أى مصادر مياه بينما يجبرهم صلاح الدين على الأشتباك فور عبورهم الصحراء وقبل إلتقاط انفاسهم بينما جنود صلاح الدين مستجمين حول طبرية التى تمدهم بإحتياجاتهم من المياه بسخاء ،

ثم أن الفرسان المسلمون يفضلون إختيار الأراضى الوعرة ميداناً للمعارك، لإستخدام تضاريس هذه الأراضى فى مناورات الإلتفاف التى يؤدونها ببراعة وإحترافية، أما الصليبيون فيفضلون الأراضى السهلة الخالية من أى تضاريس ليسهل عليهم القيام بهجومهم المعتاد بصفوف متراصة وبشكل مباشر معتمدين على قوة تدريعهم،

ووضع صلاح الدين وأركان حربه خطة مركبة لضرب الجيش الصليبى الضخم، وتعتمد هذه الخطة على عدة نقاط، إتخاذ مواقع حاكمة أمام أضيق نقطة فى الطريق إلى بحيرة طبرية العذبة لمنع الصليبيين من الوصول إليها الأمر الذى يضعهم تحت

سيف العطش، إجبار الصليبيين على ترك مواقعهم الممتازة بصفورية الغنية بموارد المياه والزحف وإجتياز الطريق الشحيح فى الماء، وذلك بمهاجمة مدينة طبرية والمتواجد داخل أسوارها الكونتيسة إيشفيا، ثم مهاجمة الصليبيين اثناء زحفهم الأمر الذى سيؤدى إلى بطئ الزحف مما يعرضهم لفترة أطول لشمس الشرق الحارقة وكذلك إجبارهم على القتال أثناء زحفهم الأمر الذى يزيد أرهاقهم، ثم قتال الصليبيين بمجرد وصولهم للحد الأمامى للقوات الإسلامية مع عدم ترك فرصة لهم لإلتقاط أنفاسهم، كما حرصت القيادة الإسلامية على عدم إشراك كافة القوات كلها فى مراحل القتال، بل قامت قوات نبالة خفيفة بمهاجمة القوات الصليبية أثناء زحفها، ثم قطع الطريق وحصار الصليبيين بقوات تتشبث بالأرض، وإدخار قوات راكبة مختارة تحت قيادة تقى الدين عمر للإشتراك خلال اللحظات الحاسمة والإجهاز على القوات الصليبية والسيطرة على ميدان القتال،

وهكذا أحتشد الجيشان، المسلمون غرب طبرية، الصليبيون فى صفورية، يفصل بينهم حوالى ستة عشر ميلاً أى حوالى أربعون كيلومتر من الأراضى الصخرية الجرداء، هى الجيش الثالث الذى بحث الجيشان على التحالف معه، فالجيش الذى سيستطيع أجبار خصمه على عبور هذه الأربعين كيلو متر يُعتبر قطع نصف الطريق للنصر، وفى الوقت الذى تجمد الصليبيون فى مواقعهم أعمل صلاح الدين ذهنه بكل حنكة فى طـريقة لإجبار الصليبيين على الزحف لمواجهته، وقائد عبقرى مثل صلاح الدين لا يعدم الوسيلة، فصلاح الدين كان على دراية بمزاج الفارس الصليبى المتقلب، فالفارس الصليبى كان محترف قتال ولكنه كان هاوى حرب، فهو كان ذو مهارة فردية فائقة فى إستخدام الأسلحة ولكنه كان لا يحسن العمل كفرد فى مجموعة بل تميز بالتهور ويمكن إستيثارته بسهولة .

وعليه قام صلاح الدين بتنظيم قواته بحيث تقطع الطريق الواصل بين طبرية وصفورية، فى سهل خصيب مغطى بالعشب تظلله أشجار الثمار، وإن كانت أوضاع قوات صلاح الدين فى كنف البحيرة فى منتهى الخطورة فقد أقفلت أمامها أبواب الإنسحاب فى حالة ما إذا تعرضت للهزيمة، حيث كانت بحيرة طبرية تقطع طريق الجيش الإسلامى إلى قواعده،

قاد صلاح الدين قلب الجيش المكون من عسكر مصر التى جاءته بأهلها السمر[18] حيث كان أكثر من فى الحلقة السلطانية[19] من العساكر المصرية، بالإضافة لقوات

[18] الفتح القسى ص164

باقى ولايات دولته، وتولى تقى الدين عمر أبن أخيه قيادة الجناح الأيمن، التى أدخرها صلاح الدين كقوات إحتياطية لإنهاء القتال بعد أن يصل بالجيش الصليبى لمرحلة الإنهاك، وتولى مظفر الدين كوكبرى قيادة الجناح الأيسر، ووفر الجيش الإسلامى أحمال هائلة من السهام، وتم توزيع السهام على الفرسان والمشاة، مع توفير سبعين عربة بالخطوط الأمامية محملة بالسهام لمن تفرغ جعبته، على أن تكون بحيرة طبرية فى ظهر جيشه، لتشهر سيف العطش على القوات الصليبية، بينما يرنو إلى الجيش الإسلامى من بعيد شبح مرتـفعات هضبة الجولان، كان صلاح الدين يمر بين صفوف قواته ويقول لجنوده "أنا واحد منكم"[20] وجاءت اللحظة الفاصلة من الخطة وهى إجبار الصليبيين على ترك مواقعهم الحصينة بصفورية ،

قام صلاح الدين بمهاجمة مدينة طبرية المقامه فى أحضان بحيرة طبرية بجزء من جيشه، والتى تحتمى خلف أسوارها صاحبتها كونتيسة طرابلس "إيشيفا أوف بور" زوجة ريموند، فليس هناك اكثر من أستنجاد أميرة طرابلس يمكن من إثارة روح التعصب والمغامرة لدى الصليبيين، وسقطت مدينة طبرية بمنتهى السهولة والسرعة، وقامت أميرة طرابلس بالأحتماء بالـقلعة، مما أثار الذعر فى نفس الأميرة المحاصرة، بينما صلاح الدين لا يريد سقوط القلعة حتى لا يميت أمل إنقاذ الكونتيسة فى نفوس الصليبيين، فقامت إشيفيا بإرسال رسالة إستنجاد للجيش الصليبى المتمركز فى صفورية، وهذا كل ما كان يحلم به صلاح الدين حتى رسول أميرة طرابلس أستطاع إجتياز حصار قوات صلاح الدين المحكم بمنتهى السهولة، مما يشير لأحتمالية تيسير صلاح الدين لمهمة هذا المبعوث ،

وهكذا قام صلاح الدين بمناورته البارعة بمهاجمة طبرية المتولى الدفاع عنها زوجة ريموند كونتيسة طرابلس، قطعة الجُبن التى ستجذب الفارس الصليبى المتغطرس للمصيدة، وترك إكمال باقى خطته لعنصرية وغرور وغرائز الصليبيين،

قد وقع الصليبيون فى الفخ بسبب أن الطُعم كان شديد الأغراء ولا يقاوم، فقد توحدت أراء الفرسان حول ضرورة الزحف لتخليص الكونتيسة المحاصرة فى طبرية وألتقت معهم أراء أغلب كبار الأمراء، بعد أن أرسلت الكونتيسة رسالة بإنها خائفة أشد

---

[19] قوات تابعة للدولة رأساً وتعمل تحت قيادة السلطان مباشرة مقابل راتب دورى،

[20] شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص64

الخوف[21]، لينادى الفرسان "هيا بنا نخرج وننقذ سيدات طبرية وعذرواتها"[22] وأن كان "ولا بد من الموت، فموتنا فى هذه الأرض المقدسة خير لنا منها"[23]

الرسالة الأن بين يد الملك جى الجالس بخيمته بوسط معسكر جيشه، فقام بجمع كبار البارونات ورجال الأكليروس وعرض عليهم فحوى الرسالة، وكان أول الأمراء حديثاً هو أمير طرابلس الكونت ريموند بصفته زوج الكونتيسة، ريموند كان أجدر أمراء الصليبيين فى الشام وأكثرهم خبرة، ولكنه كان متهم بمحالفة صلاح الدين ومحاصر بمقت وكراهية رجال الملك جى، ومع هذا كان رأيه أن أتبعه الصليبيون كفيل بإعطاء مملكة بيت المقدس بالقدس بضع سنوات أخرى، فقد كان من رأى ريموند عدم الدخول فى مصيدة صلاح الدين، تلك المصيدة الضخمة التى أعدها لهم بإحكام، مصيدة مساحتها أربعين كيلومتر من الأرض الجرداء التى لا تستطيع مد الجيش بإحتياجاته من المياه، فقد قال ريموند أن سقوط طبرية وأسر زوجته خير عنده من ذهاب المملكة كلها، فريموند على علم بأخلاق حليفه القديم ويعلم إستحالة إضرار صلاح الدين بالكونتيسة إذا تم أسرها، بل سيقوم بإطلاق سراحها وأن أقصى ما سيفعله صلاح الدين هو هدم أسوار مدينة طبرية، والتى سيكون من السهل إعادة بنائها بعد ذلك، بل وطالب ريموند الملك بنقل المعسكر الصليبى بالقرب من عكا وإختيارها المكان المناسب للمعركة المنتظره، لأنه فى حالة هزيمة الصليبيين سيحتمون بمدنهم المسورة وقلاعهم، أما لو كانت الهزيمة من نصيب الجيش الأسلامى فسوف يتم مطاردته لمسافة كبيرة قبل أن يتمكن المسلمون من الوصول لمدنهم ومعاقلهم، وما أن أنهى ريموند حديثه حتى تمتم مقدم فرسان الهيكل جيرارد بقوله أنه "مرتدى زى ذئب"، فجيرارد لم يستطع نسيان الهزيمة التى نالها على يد الأفضل بن صلاح الدين فى الناصرة، وأرناط الأحمق الكبير نادى بديماجوجية مجنونة بوجوب إنقاذ الكونتيسة، وصاح فى قحة أن واجب ملك بيت المقدس ينصب على تخليص الكونتيسة بإعتبارها تابعه إقطاعية له، وبينوا أن مُثل الفروسية العليا والشرف يحتمان عليه عدم الخوف من صلاح الدين، وقال أرناط ـ فى أداء مسرحى درامى ـ لـريموند "قد أطلت تخويفنا من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم، وأما قولك أنهم كثيرون فالنار لا يضرها كثرة الحطب"[24]، ولكن باقى البارونات أقتنعوا برأى ريموند وتم الأتفاق فى نهاية الأجتماع على الأنتظار فى صفورية .

---

21 ذيل وليم الصورى ج67

22 ذيل وليم الصورى ص70

23 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص52

24 الكامل ج10ص145 وإن كان يستحيل على أبن أثير معرفة مادار فى مجلس الحرب للجيش الصليبى

طريق الموت

تم النداء بين جنبات المعسكر الصليبى بقرار مجلس الحرب بالإنتظار بمعسكرهم بصفورية وعدم التحرك لقتال المسلمين بطبرية، وصدرت همهمات معارضة من جانب الفرسان الذين كانوا متحمسين للقاء المسلمين ولكن جاء القرار بمثابة دلو من الماء البارد أطفئ حماستهم، وذهب بروحهم المعنوية التى تعتبر كالغذاء لشجاعة الجنود، فقد تيقن جنود الجيش بعدم خوضهم الحرب قريباً وأصبحوا غير مهيئين للقتال الأن، فقد قام كل فارس صليبى بحفظ درعه فى جرابه الصوف الذى يحفظه من الصدأ، ولم يحتفظ أيهم بالماء، فالماء فى صفورية متوفر، وبدء من لم يوّكل له مهام حراسة بالتأهب للنوم على مضض،

بينما الملك جى جالس فى خيمته يدخل عليه جيرارد مقدم الداوية يحركه حقده وكراهيته لريموند، وذكرى الهزيمة المخزية التى لحقت به وهروبه المذل من أبن صلاح الدين فى الناصرة، وأخذ فى إقناع الملك جى بضرورة الزحف لمقاتلة المسلمين، مبيناً له أن من أبسط واجباته كملك أن يحمى أتباعه الأقطاعيين والتى تدخل من ضمنهم الكونتيسة المحاصره، ومذكراً أياه ضخامة الجيش الذى أنضم تحت لواءه وأنه أضخم جيش أستطاع ملك صليبى جمعه، مبيناً مدى العار الذى سيلحقه إذا ما ترك طبرية تسقط فى يد عدوه، ولم ينس جيرارد التلميح بالمساعدات المجدية التى نالها جى من الداوية والتى لولاها ما كان يجلس على العرش، وأن الداوية يريدون الإنتقام من جيش صلاح الدين لما حل بهم من العار والإذلال، ولتشجيع الملك جى على الزحف تعهد جيرارد بصفته مقدم الداوية بقيام فرسان الداوية بحماية مؤخرة الجيش الزاحف، وهو القِسم الذى أعتاد فرسان المسلمين مهاجمته دائماً، وأمام كل هذا لم يجرؤ الملك جى ضعيف الشخصية على مخالفة جيرارد، الذى أراد مسح عار هروبه من أمام المسلمين، وهو مقدم الداوية الذين كانوا يروا العار كل العار فى عدم خوض القتال ضد المسلمين أينما وجدوا،

فتم النداء بين جنبات المعسكر الصليبى بقرار الملك بالزحف الفورى لإنقاذ طبرية وصاحبتها، وطرد صلاح الدين من أراضى المملكة، وهذا اقصى ما كان يحلم به صلاح الدين فما أن سمع بتحرك الجيش الصليبى حتى هتف "الأن جاء ما كنا نريد "،

لقد تكاتف غرور الصليبيين وعنصريتهم مع إنقسامهم السياسى مع ضعف شخصية الملك جى للقضاء على الوجود الصليبى فى القدس، فعندما تم إعلان قرار الزحف حدثت حالة من الهرج فالجميع نائم وتم إيقاظهم بأوامر مغايرة لما ناموا عليها، بينما

ساد الغضب كبار البارونات لعدم أخذ الملك برأيهم، وتم التحرك فجراً مع أولى خيوط الضياء ـ حسب رغبة صلاح الدين ـ ووجوه البعض يعلوها الثقة والبهجة، ويعلوا وجوه الباقى الإضطراب والحيرة ،

ليتم إبلاغ صلاح الدين عن طريق اليزك[25] تحرك الجيش الصليبى، وقد قاد المقدمة ريموند بسبب أن الزحف داخل أراضيه بينما أتخذ جى موقعه فى القلب كقائد عام الجيش وبجانبه حُمل صليب الصلبوت بينما كانت مؤخرة الجيش تحت قيادة بلدوين كونت أبلين وأرناط، والداوية والإسبتارية يتوليان حمايتها،

بدء الزحف الصليبى الأخير بفلسطين يوم الجمعة 3 يوليو 1187م قبل شروق شمس يوم قائظ الحرارة أنعدم فيه الهواء، لتقرع طبول الحرب لحنها الحزين، والصليبيون سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون[26] بعد أن أتخذ الجيش الصليبى تشكيلاته المعتادة، الفرسان فى الوسط بدروعهم الحديدية البراقة، التى تومض أشعة الشمس عليها، ويحيط بهم مشاتهم، الجيش الصليبى ما زال أداة قتالية فى منتهى الفعالية وهو فى معسكره بصفورية، وينبئ مشهده أثناء بدايات زحفه ـ وقد تعالى جلبة تحرك قواته حتى تصم الأذان ـ عن قوة رهيبة، ولكنه كان كعملاق بقدمين نحيلتين ضعيفتين، وقد وضعهما داخل مستنقع لا خلاص منه، مظهر الجيش من بعيد وهو يقطع الصحراء كالسفينة الضخمة التى تمخر عباب بحراً أصفر،

ليسارع الفرسان المسلمون فى إتباع أسلوبهم الفتاك القذف بالسهام والقتال من وضع الحركة وأرسال أمواج متلاطمة من سهامهم تغرق جيش الفرنج، ليصاب جيش الفرنج ببعض الخسائر الطفيفية، فدروعهم توفر لهم حماية سخية، ولكن الأهم أن الهجمات الإسلامية أدت إلى إبطاء التحرك الصليبى، وأشرقت الشمس وأرتفعت فى كبد السماء، والتحرك ببطئ تحت ضغط الفرسان المسلمين الذين تتعالى صيحاتهم المنتشيه بأمال النصر، وأزدادت قسوة الطقس وزادت وسائل الحماية التى يرتديها جنود الجيش الصليبى من الأحساس بحرارة الجو، ولا يحيط بالجيش الصليبى إلا الهواء الساخن وأشعة الشمس الحارقة والرمال الملتهبة، فالفارس الصليبى مغطى بالحديد من رأسه لأخمص قدمه وكذلك جواده، أما المشاة فيغطون أجسادهم بمعاطف من اللباد السميك الذى يكفل حمايتهم من أسلحة أعداءهم، فالصليبيون فشلوا فى تطوير وسائل الحماية الخاصة بجنودهم بما يتلاءم مع المناخ بالشرق، بل درجوا على إمتطاء خيولهم فوق رمال الشام المحرقة وأسفل لهيب شمس الشرق وأجسامهم يغطيها الزرد

[25] قوات إستطلاع مكونة من فرسان خفيفى الحركة مشهورين بالشجاعة والكفاءة
[26] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ص61

الحديدى وبأيديهم الترس الثقيل وفوق رؤوسهم خوذهم المخروطية التى تغطى رؤوسهم ووجوههم وكأنهم ببلادهم ذات الطقس البارد بأوروبا، وهنا بدء العطش القتال نيابة عن صلاح الدين ،

ويزداد عطش الجنود والجياد على حداً سواء، وقل الماء أن لم ينعدم تماماً، وأرسلت الشمس أشعتها كأنها سياط ملتهبة من نار تجلدهم، والصحارى الجافة، وتموجات الرمال تبتلعهم، وأنين الإجهاد ترددها حناجر خائرة القوى، كأنها قادمة من القبور، فالصليبيون زحفوا فجراً ولم يتسنى لهم الوقت لأصطحاب الماء، فطبرية وبحيرتها العذبة قريبة نظرياً، الفارس الصليبى وهو بمعسكره وسط هذا الخضم من زملاءه سيرى طبرية الوصول إليها هين، ولكن الفرسان المسلمون جعلوها بعيدة المنال بقتالهم الذى أجبر الصليبيين على الزحف ببطئ شديد، فالزحف أصبح حبواً حتى لا ينفصم عرى جيشهم تحت وطأة الهجمات الأسلامية، وبعد عناء شديد وساعات تحت أشعة الشمس الحارقة عند أقتراب الجيش الصليبى من طبرية فوجئ بتمركز الجيش الإسلامى بمواقعه التى تحول بينهم وبين الوصول للماء، والشمس تودعهم إلى المغيب بعد أن أدت مهمتها بنجاح،

بينما الصليبيون وصلوا لأقصى حالات الأجهاد حتى أن جيرارد أرسل للملك جى من أعلمه بعدم قدرة فرسان المؤخرة التقدم خطوة واحدة بسبب هجمات المسلمين التى لا تنقطع، هكذا كانت أقصى نقطة أستطاع الجيش الصليبى الوصول إليها منطقة لوبيا ووجوه الجميع يعلوها أتربة الطريق الصخرى وملامح الوهن، قبل الوصول لبحيرة طبرية بثلاثة كيلومترات فقط، ولم يستطع التقدم خطوة أخرى فقد اخذ الأجهاد منه كل قدرة على التحرك، ففرسانهم قيدهم الأرهاق وينهشهم العطش بأنيابه القاتلة، بينما جيادهم تترنح وتلهث تحت وطأة حملها الثقيل، وقد قام سد منيع بينهم وبين بحيرة طبرية ذات المياه العذبة من جنود الجيش الأسلامى، لتتكشف الصورة أمام الصليبيين، فعلى مرمى بصرهم تتلالأ مياه البحيرة فى قعر الوادى بمنظر خلاب يحطم أعصابهم العطشى، بينما فى السهل الأخضر الفسيح جنود الجيش الإسلامى قاموا ببناء سد بصدورهم وسيوفهم وأرماحهم أمام أى تقدم للصليبيين الذين كثيرون منهم أدركتهم آجالهم ،

بينما يعنى التوقف الأن فى موقع تنعدم فيه تضاريس تصلح للدفاع ولا تتوفر فيه المياه كالأنتحار للجنود العطشى، والرجوع لصفورية معناه فناء الجيش تحت وطأة مطاردة الفرسان المسلمين الرشيقين، بعد أن سلب صلاح الدين القيادة الصليبية القدرة

على المناورة بقواتها، ولم يترك لهما إلا الخيار الذى يريده، وهو الصدام بمعركة مفتوحة،

فقد الجنود الصليبيون القدرة على القتال، فكان القرار المدمر الأخر وهو التوقف بلوبيا، ولكن لوبيا لا تصلح لأقامة معسكر فهى تفتقر تماماً للماء بينما على يسار الممر[27] مرتفعات تسمى قرون حطين قد يوجد بها بعض الينابيع التى تستطيع إطفاء لهيب العطش الأخذ بتلابيبهم، وكما قد توفر المرتفعات بتضاريسها بعض خطوط الدفاع ضد الفرسان المسلمين، فأصدر الملك جى أوامره بالأنحراف يسار الطريق للتمركز بقرون حطين،

ولكن تغيير المسار تم بصورة سيئة، أدت لتفتيت نظام الجيش الصليبى تماماً وإنهيار تماسكه، وتكفلت هجمات المسلمين التى أزدادت ضراوة بتمزيق أوصال الجيش المترنح، فسارع جنود الجيش الصليبى بالأحتماء بمرتفعات حطين والليل الذى أقترب، ويأخذ الجنود فى بحث عقيم عن المياه، وتحلق الجيش حول بئر بالمكان، ولكنهم أكتشفوا أن البئر جافة، ليقضى الصليبيون ليلة تعيسة يعانون من العطش بينما مظهر البحيرة الجذاب خلف جنود صلاح الدين يقطع نيات حلوقهم الجافة، وقوافل الجمال المحمله بروايا الماء تطوف على تشكيلات جيش صلاح الدين على مرأى من الجنود العطشى مما يزيد من عذاب اللهاث، وهتاف جنود صلاح الدين وتوعدهم يمزق شجاعتهم، وحاول الصليبيون أقامة معسكرهم فلم ينجحوا إلا فى أقامة خيمة الملك فقط هذه الخيمة التى ستكون محور القتال فى صباح اليوم التالى، بينما الجيش الإسلامى يعيد إنتشار جنوده لحصار الجيش الصليبى تماماً،

ما أبعد اليوم عن الأمس، فالصليبيون عندما بدءوا الزحف أعماهم غرور القوة وصور لهم تهورهم الذى جاوز الحماقة انهم سيصلون فى بضع سويعات لطبرية، ولن تستطيع اى قوة الوقوف فى طريقهم، ولكن حرارة الجو وأنعدام المياه وحسن تنظيم الجيش الأسلامى وشجاعة جنوده وكفاءة قيادته العليا كانت أقوى منهم وحطمتهم تماماً، وكان على الصليبيين قضاء ليلة حالكة السواد من الأجهاد والعطش وهجمات المسلمين التى لا تنقطع، وحتى يقال أن صلاح الدين أمر بسكب المياه على مرأى من الصليبيين لزيادة أحساسهم بلهيب الظمأ، حتى غرقت أمالهم فى مجرد النجاة من بحر غرورهم .

[27] البالغ طوله ميل واحد و الفاصل بينهم و بين المياه

الروح المعنوية للجيوش هى غذائها للنصر ، فشتان بين الجيشين ، المسلمون يبتهلون ويهللون ويكبرون، والصليبيون يعانون نيران العطش وعضات الإرهاق ،

صباح السبت 4 يوليو 1187م يوم فاصل فى تاريخ الحركة الصليبية، فقد أختار الجانبان خيار القتال، المسلمون فى المكان الذى خططوا لجر الصليبيين إليه ونجحوا فى ذلك بمهارة، والصليبيون الذى فقدوا أى خيار اخر، وبالرغم من جميع النكبات التى هوت فوق رأس الجيش الصليبى، إلا أنهم مازالوا مغامرون وجنود محنكون، ويعلمون أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام، فأمر الملك جى أخيه آمورى قائد قوات المملكة بتنظيم خطوط القتال وحشد كتائب الصليبيين إستعداداً للمعركة، وكالمعتاد أتخذ مشاة الصليبيون مواقعهم أمام فرسانهم لتوفير الحماية لخيول الفرسان من النشاب والسهام التى يطلقها الفرسان المسلمون، وأعتمدت خطة المسلمين على الفصل بين سلاحى الجيش الصليبى، ولم يدفع صلاح الدين بكامل قواته للمعركة، بل أحتفظ بقوات تقى الدين عمر للحظات الحاسمة من المعركة،

بداية المعركة كانت طبيعية حيث أطلق مشاة الصليبيون وابل هتان من السهام فى إتجاه الفرسان المسلمين ثم أعاد مشاة الجيش الصليبى أنتشارهم بجناحى ومؤخرة الجيش الصليبى بحيث أتاحوا خطوط تماس بين فرسان الصليبيين والمسلمين، لينطلق الفرسان الصليبيون فى هجمة شرسة متعجلة يحاولون بها دفع المسلمين لإيجاد طريق لبحيرة طبرية، أستطاع المسلمون أمتصاصها بعد أن تظاهروا بالتراجع لأبعاد فرسان الفرنجة عن مشاتهم الذين بلغ منهم الأنهاك حد منعهم من القدرة على مجاراة تحركات فرسانهم، كل هذا والمسلمون محيطين بالصليبيين إحاطة السوار بالمعصم،

وعندما تأكد ريموند من سقوط الجيش الصليبى فى المصيدة وضع كل جهوده فى فتح ثغرة بالطوق الحديدى الذى أحاطهم المسلمون به، وصرخ فى فرسانه "من أستطاع منكم النجاة فلينج فإن المعركة قد حسمت" فقام تقى الدين عمر بفتح ممر هروب لريموند وفرسانه للأنفراد بباقى الجيش الصليبى، وبالفعل قام ريموند وفرسان طرابلس بالركض بجيادهم هرباً وترك باقى الصليبيين لمصيرهم المحتوم، ليلحق به باليان أمير أبلين ورينالد كونت صيدا[28]، ليخلو المكان الذى كان يشغله الفرسان الفارين مما يسمح لتقى الدين بقواته المختارة بأن يعيد تشكيل إنتشارها، ويخلق خطوط تماس جديدة مع القوات الصليبية المنهكة، منتظراً اللحظة الحاسمة لإشتراكه الفعلى فى القتال،

[28] لا يستبعد أن يكون هذا الفرار بإتفاق وترحيب من صلاح الدين، حيث فشل فرسان اقوى وأفضل من الطرابلسيين فى الفرار، ثم ريموند الحليف السابق لصلاح الدين وبليان ورينالد من الصليبيين البولان حلفاء ريموند

أما الداوية والأسبتارية فقد تراجع المسلمون أمامهم، ثم حينما أبتعدوا عن مشاتهم أنقض المسلمون فى هجوم مضاد مزق فرق فرسان الهيكل والأسبتارية تماماً بما يشبه المذبحة، أما مشاة الصليبيين فقد هاجمهم المسلمون وضغطوا عليهم بشكل أدى إلى إختلال صفوفهم تماماً وإلتجاءهم فوضوياً وتكتلهم بدون نظام أعلى أحد هضاب حطين للأحتماء بها من القتل، وعبثاً حاول الملك وباروناته دفع مشاتهم للقتال، فقد بلغ منهم أجهاد العطش والطقس الحار وضراوة هجمات المسلمين حد العجز، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه أمر الملك جى بنصب الخيام ليتجمع حولها جنوده المنهارة عند رؤيتها منصوبة لعله يستطيع تنظيم جبهة دفاعية ضد هجمات المسلمين المميتة، ولكن جميع محاولاته فشلت فى إيقاف الفوضى الضاربة فى صفوف جيشه، وفقد الصليبيون أى أمل إلا القتال، فقاموا بهجوم جارف وقاتلوا قتال اليائس[29]،

حاول الصليبيون كسر الحصار المميت المفروض حولهم، متأثرين بمظهر مياه بحيرة طبرية الخلاب، ولكن هجومهم فشل، وأنهى المجهود المبذول فيه البقية الباقية من تماسكهم،

وبلغ اليأس بالجنود الصليبيين مدى خطير، وزاد مجهود القتال من حدة العطش، وإذابت حرارة شمس الصيف الحارقة إرادتهم ومعنوياتهم، حتى رأوا الرحاب أضيق من سم الأبرة، وفى منتصف نهار المعركة أرتمى ستة جنود صليبيون مستسلمون لجنود الجيش الإسلامى الذين أخذوهم لصلاح الدين والذى أخذ فى سؤالهم عن الوضع بين الصليبيين فأخبروه ببحر الكوارث الذى غرق فيه الجيش الصليبى، وأنه سرعان ما سينهار وأعلموا صلاح الدين بمقتل أسقف عكا،

حاول من بقى من الفرسان الصليبيين الوصول إلى خيمة الملك الحمراء فوق التلة، وتنظيم دفاعاتهم اليائسة، وقاتلوا قتال من فقد الأمل فى الحياة، حتى غدت التلة أشبه بجزيرة منعزلة وسط بحر من الفرسان المسلمين، أما مشاة الصليبيين فقد أبيدوا

---

[29] ويروى لنا الأفضل بن صلاح الدين ذلك الهجوم "كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بأبى، فنظرت إليه وقد علته كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان، فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بأبى، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا إيضاً هزمناهم، فألتفت والدى إلى وقال : أسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، فهو يقول هذا إلى وإذا بالخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد لله شكراً وبكى من فرحه" الكامل ج11ص53

بسيوف المسلمين حتى من حاول الفرار بالصعود أعلى الهضبة لم يجد ملجأ من القتل، وهنا ألتفت صلاح الدين لخيمة الملك التى تجمع حولها فلول فرسان الصليبيين والملك وصليب الصلبوت يحمله أسقف اللد بعد مقتل أسقف عكا، فأمر صلاح الدين أبن أخيه تقى الدين عمر بالأشتباك معهم، فتحرك تقى الدين بحرية نسبية بعد فرار ريموند الذى أخلى له الساحة، وتحت ضغط هجوم تقى الدين تراجعت فرسان الصليبيين وتكتلت وقاتلت بعنف فهى لم يعد لديها خيار، وكانت حرارة الشمس تلتهب فوق الأعشاب اليابسة التى كانت تكسو ميدان المعركة، فقام أحد المتطوعون المسلمون وقد لاحظ إن إتجاه الريح متجه لموقع الصليبيين بإلقاء النار فى الأعشاب المنتشرة فى المنطقة القريبة من الصليبيين، لتدخل النار ودخانها المعركة فى صف المسلمين مما زاد الطين بلة بالنسبة للصليبيين فقد تحالف العطش والظمأ ولهيب النيران والدخان الخانق ضدهم،

وقد حاول الصليبيون التجمع للدفاع عن أنفسهم وملكهم وأقدس مقدساتهم، صليب الصلبوت الذى يحرص الصليبيون على حمله معهم فى كافة معاركهم ليقينهم أنهم بهذا يستجلبون العناية السماوية، ولكن تقى الدين وجه إليهم الضربة القاضية، فقد نجح فى الأستيلاء على صليب الصلبوت مما قضى على البقية الباقية من معنويات الصليبيين، وحتى عندما حاول بعض فرسانهم القيام بهجوم يائس لفتح طريق لفرارهم كما فعل ريموند أستطاع المسلمون صد هذا الهجوم الذى كان بمثابة الرعشة الأخيرة قبل الأجل المحتوم، فقد أوصل الهجوم المضاد الذى قام به فرسان المسلمين قوات الجيش الأسلامى لخيمة الملك جى الذى استسلم هو وجميع من بقى على قيد الحياة، فقد كانت هذه الخيمة محور المعركة الأخيرة حتى أن صلاح الدين قال لولده الأفضل الذى كان بجواره خلال اللحظات الأخيرة للمعركة عندما هلل فرحاً إعتقاداً منه هزيمة الصليبيين "ما نهزمهم حتى تسقط هذه الخيمة" وعندما سقطت الخيمة بكى صلاح الدين ونزل من على صهوة حصانه وسجد لله شكراً، هكذا سقطت الخيمة وسقطت المملكة معها عصر يوم المعركة، وقد ترجل فلول فرسان الصليبيين عن جيادهم بسبب العطش الماسك بتلابيبهم وأرتموا أرضاً مستسلمين .

فرسان الفرنجة لم يحاولوا الفرار فقد أخذ الأرهاق بخناقهم، بعد أن أجبرهم صلاح الدين بخططه العبقرية بالبقاء تحت السلاح لمدة يومين، فما أن غادر الصليبيون معسكرهم فى صفورية حتى ظلوا بدروعهم الثقيلة يدورون كيفما يريد صلاح الدين، فمن المسيرة المرهقة من صفورية حتى حطين، وقتال الأرهاق الذى مارسه ضدهم بواسطة قواته المختارة أثناء زحفهم، التى أحالت الطريق لطريق عذاب، يضاف لذلك

سيف العطش الذى سلطه عليهم، وحرارة الطقس التى زادتها وسائل الحماية التى سجـن الصليبيون أنفسهم داخلها، مما أعاق تعرّق الجسم، الأمر الذى زاد من قسوة حرارة جنوب الشام فى هذا الوقت من العام، وفوق ذلك النجاح المبهر الذى حققته العقيدة القتالية الإسلامية، والتنفيذ الإحترافى لجنود صلاح الدين الذين نجحوا فى فصل رجّالة الصليبيين عن فارسهم، مما حرم الفرسان من الحماية لخيولهم التى كانت توفرها لهم رجّالتهم، مما يسر مهمة القضاء على مشاة الصليبيين وفرسانهم كلاً على حده،

وقد كانت نتائج حطين كارثية للوجود الصليبى فى القدس فبعد معركة حطين لم يستطع الصليبيون السيطرة على المدينة المقدسة، وما أن حل عصر اليوم إلا وكان جميع جنود الجيش الصليبى أما قتلى أو أسرى بإستثناء ريموند ،

فقد أُسر الملك جى، أسره فارس كردى يسمى درباس، وأخيه أمالريك وزير دفاع المملكة وأرناط أسره غلام صغير لأمير يسمى إبراهيم المهرانى[30]، وهمفرى أمير تبنين، ومقدم الداوية وكبار البارونات، وفرسان الفرنج بدروعهم المعدنية اللامعة جالسين أرضاً مقيدين كل أربعين فارس بحبلاً واحد، بينما أخرين جالسين مكدسين داخل خيمة يحرسها جندى منفرد، بينما هناك جندى مسلم يقود ثلاثين أسيراً مقيدين بحبلاً واحد، حتى أن أبن أثير يقول "من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحد، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحد"[31]،

أنتهت أعمال القتال وصلاح الدين الأن فى دهليزه[32] ويتم عرض الأسرى عليه، والملك جى بملابسه الممزقة يلهث من العطش ويعلو وجهه مظاهر الخوف فيناوله صلاح الدين ماء مثلج فيشرب منه الملك جى ويعطى الباقى لأرناط الذى نهل منه فينظـر السلطان مغضباً للملك جى ويكلمه على لسان الترجمان "أن هذا اللعين لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى"[33] فقد كان من عادة العرب أن الأسيـر إذا سقاه من قام بأسره فيكون ذلك بمثابة أمان له، ثم وجه خطابه لأرناط وعدد له ذنوبه وخطاياه الكثيرة، وقال له "ها أنتصرت لمحمد صلى الله عليه وسلم" ثم سحب النمجاه[34] وضرب أرناط به فحل كتفه وسقط ثم سحبه سلحدارية[35] صلاح الدين وتمموا قتله جزاءاً

30 الروضتين ج3 ص192
31 الكامل ج10 ص148
32 خيمة السلطان الحمراء المخصصة للحرب
33 مفرج الكروب ج2ص192
34 سيف معقوف قصير لا يفارقه السلطان من يده
35 حاملى سلاح السلطان وحرسه

لجرائمه التى تضعه فى الصف الأول بين مجرمى حرب التاريخ، وقد كان صلاح الدين نذر دمه مرتين أولهما عدما حاول الزحف لمكة والمدينة المنورة وأخراهما عندما أستولى على القافلة القادمة من مصر للشام، وهدء صلاح الدين من روع جى الذى أرتعدت فرائصه[36] عندما رأى ما حل بأرناط فقال له صلاح الدين الملوك لا تقتل الملوك، أما الداوية والأسبتارية باقى مجرمى الحرب الصليبيين فقد تم أسر مائتا فارس من بينهم، تم أعدامهم جميعاً بعد أن قام صلاح الدين بشراءهم من آسريهم بخمسين دينار مصرية عن كل داوى أو أسبتارى .

نتائج حطين بمنتهى البساطة تم تحطيم المؤسسة العسكرية الصليبية التى بُنى عليها الكيان الصليبى فى الشرق، فقد كانت نتائج حطين مفجعة وعاجلة ودائمة، فقد تغيرت موازين القوى فى المنطقة لصالح المسلمين، حيث حشد الصليبيون جميع القادرين على حمل السلاح للمعركة، وقدمت مملكة بيت المقدس أضخم جيش أستطاع الصليبيون تقديمه لميدان معركة، ومن هذا الجيش لم ينج إلا أقل من القليل، أما الأغلبية العظمى سقطت أما قتلى أو أسرى، حيث لم تجد المدن الصليبية من يتولى الدفاع عنها فسقط أغلبها، فعندما شارف صلاح الدين أسوار عكا ثالث يوم من إنتصار حطين أسرع أهلها بالخروج يتضرعون له أن يمنحهم الأمان ،

وإن لم يكن إكمال تحرير الساحل الشامى من الوجود الصليبيى بالأمر الهين لوجود شبكة عنكبوتية من القلاع والمدن المسورة التى أعتمدت عليها الإستراتيجية الدفاعية الصليبية، وعمل الصليبيون على تقوية هذه القلاع والمدن المسورة منذ وطأت أقدامهم الساحل الشامى، وكذلك وصول القوات الإسلامية لحالة تشّبّع من الإنتصارات وحاجتها للراحة،

وكجندى محنك أستطاع صلاح الدين أن ينتقل بجيشه الرشيق خلال ثلاثة أشهر بين أسوار المدن والقلاع وأن يجعل من نفسه سيداً على مدن الصليبيين بالساحل،

وقد حرص صلاح الدين بعبقريته العسكرية على إستغلال هذا النصر المدّوى وتحرير الساحل الشامى، وبدء بالإستيلاء على المدن الساحلية لقفل باب الدخول لمن قد يجئ مجدداً من أوروبا، وثم سقطت القدس التى دخلها صلاح الدين فى الجمعة السابع والعشرين من رجب عام 583هـ/12أكتوبر1187م بعد ثلاثة أشهر من معركة حطين وفى ذكرى الإسراء والمعراج، بحيث لم يبقى من البنيان الصليبى الضخم إلا طرابلس وأنطاكيا وصور التى منحت للوجود الصليبى فى الشام قبلة الحياة بسبب نبل أخلاق

36 الكامل ج10ص148

صلاح الدين، فقد كان صلاح الدين يخلى سبيل أى قوات يتم اسرها أثناء إستيلاءه على أى مدينة، ويأمر بمن يوصلها حيث أرادت والجميع أختار صور التى أعدها الفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم[37] حتى صارت صور بمثابة مكان حشد الناجين من الصليبيين وأضحت مسمار جحا فى الشام، بعد أن أجتمع بها كل فرنجى بالساحل[38]

وقد أستطاعت نبل وفروسية صلاح الدين إنتزاع إعجاب أعداءه، حتى وصفه أحدهم "كان صلاح الدين حكيماً فى تصرفه، ماهراً فى الخدمات العسكرية والحرب، بعيد النظر حازماً فى أعماله، كما كان سخياً مبسوط اليد، ليس فقط بالنسبة لشعبه وإنما للبعض منا الذين أستطاع أن يجتذبهم لصفه بالهدايا والوعود، ولقد عرف العالم كله كيف جعل منا أشخاص أشرار، وكيف دمر المسيحيين إرباً إرباً مثل عقاب الإله"[39] ووصفه إيضاً بقوله "صلاح الدين الرجل الطيب ذو الروح العفيفة الذى يخاف الله"[40] "كان صلاح الدين حكيماً وصاحب مقام رفيع، يتميز بالمهارة الفائقة بين قواته وهو مقاتل محنك، بعيد النظر حازم فى عمله، كان يتسم بالتسامح الواضح، ليس فقط مع المسلمين ولكن أيضاً مع المسيحيين، وهذا ما جذب لجانبه كل من كان فى حضرته أو بعيداً عنه"[41] "وكان صلاح الدين رجل حكيم أشتهر بحنكته العسكرية، وصاحب بصيرة بالأمور"[42]

وكانت أنباء حطين وسقوط مملكة بيت المقدس بمثابة الصاعقة، التى توفى البابا أوربان الثالث بمجرد سماعه الكارثة، ليعلن خليفتيه البابا جريجيريوس الثامن والبابا كليمنت الثالث فرض صيام يوم الجمعة من كل أسبوع ـ وقعت معركة حطين بدءاً من يوم الجمعة ـ لمدة خمسة سنوات، وكذلك الإمتناع عن أكل اللحوم يومين أسبوعياً لنفس الفترة، والدعوة لحرب صليبية جديدة،

قبل معركة حطين بيوم واحد كان الصليبيون يمتلكون أقوى جيش فى الشرق الأدنى، كان أداة رعب قرابة قرن من الزمان، ويعسكرون فى أنسب موقع للمعركة بالنسبة لهم بينما صلاح الدين كان نسبة كبيرة من جيشه من المتطوعين وجنود الولايات البعيدة الذين لن يستطيعوا التواجد تحت السلاح طويلاً بل ما يلبثوا أن يملوا ويطالبوا

---

37 رحلة أبن جبير ص253

38 النوادر السلطانية ص80

39 تاريخ بيت المقدس ص142

40 تاريخ بيت المقدس ص 154

41 رسائل جاك دى فيترى ص256 ، وتعتبر هذه الشهادة وهى من متعصب مثل أسقف عكا شهادة لنبل أخلاق وتسامح صلاح الدين الأيوبى وتأثيره حتى على أعداءه

42 رسائل جاك فيترى ص261

بالتوجه إلى إقطاعاتهم وبلدانهم لرعاية شئونهم وشئون أسرهم، إذاً فسلاح الوقت كان فى صالح الصليبيين، فما كان عليهم إلا الأنتظار فى موقعهم المثالى وترك المبادرة لصلاح الدين، الذى لو غامر وتوغل فى الأراضى الصليبية فقد كان سيفُرض عليه مكان وزمان المعركة المناسب للصليبيين وليس له، وإلى ذلك الوقت كانت الكتلة الرئيسة للجيش الصليبى تتكون من الفرسان المحمين من المشاة والمشاة المحمين من الفرسان، فما دام الجيش الصليبى يقاتل بإستراتيجيته المعتادة التى تقوم بالتعاون التام بين الفرسان والمشاة كان النصر حليفهم دائماً، وهذا ما وعاه صلاح الدين وعمل على فصم عرى هذا التعاون والفصل بين مشاة الصليبيين وفرسانهم وهو ما نجح فيه بامتياز وعبقرية وإقتدار

معـركة حـطين

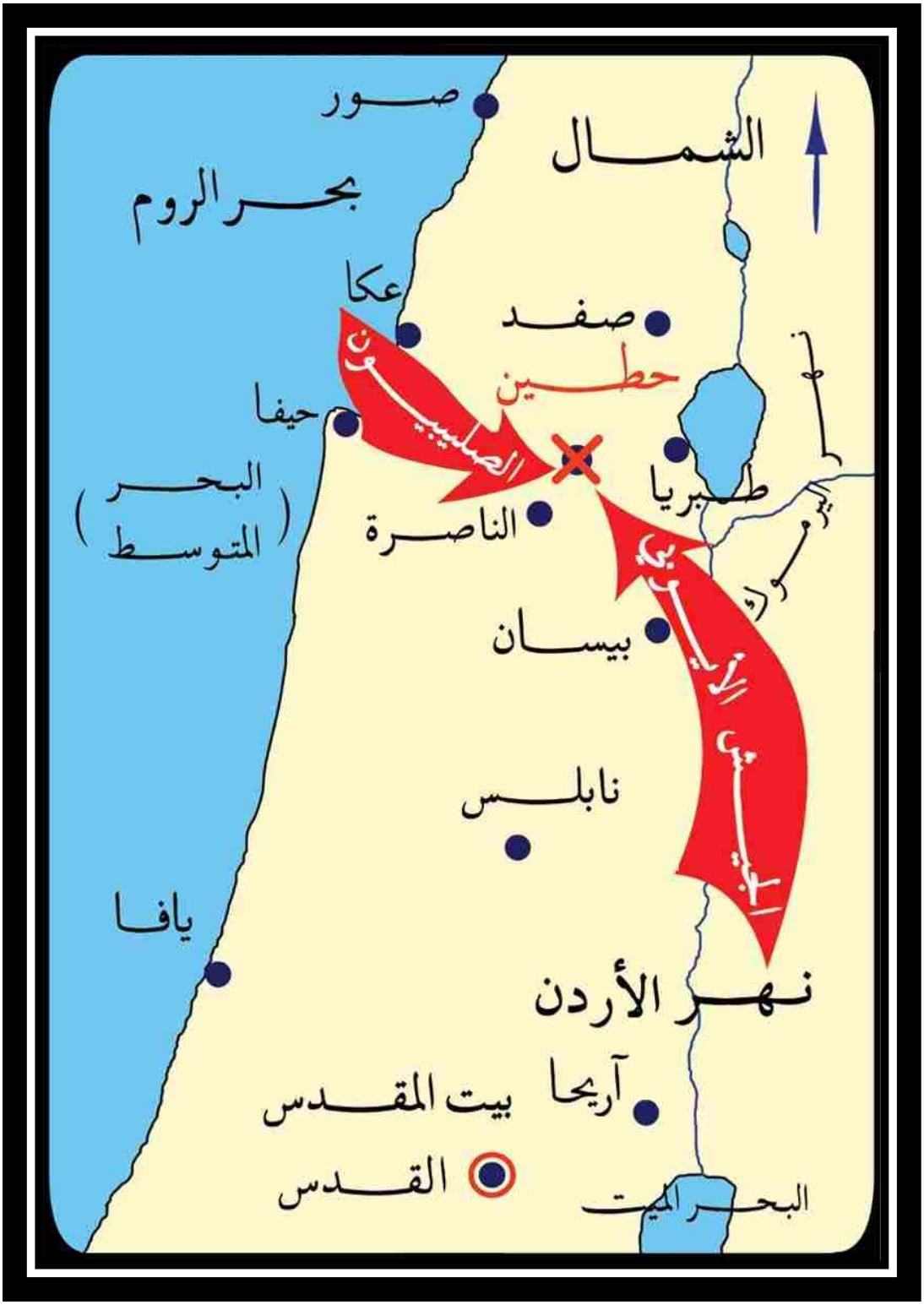

معـركة حـطين

معركة حطين

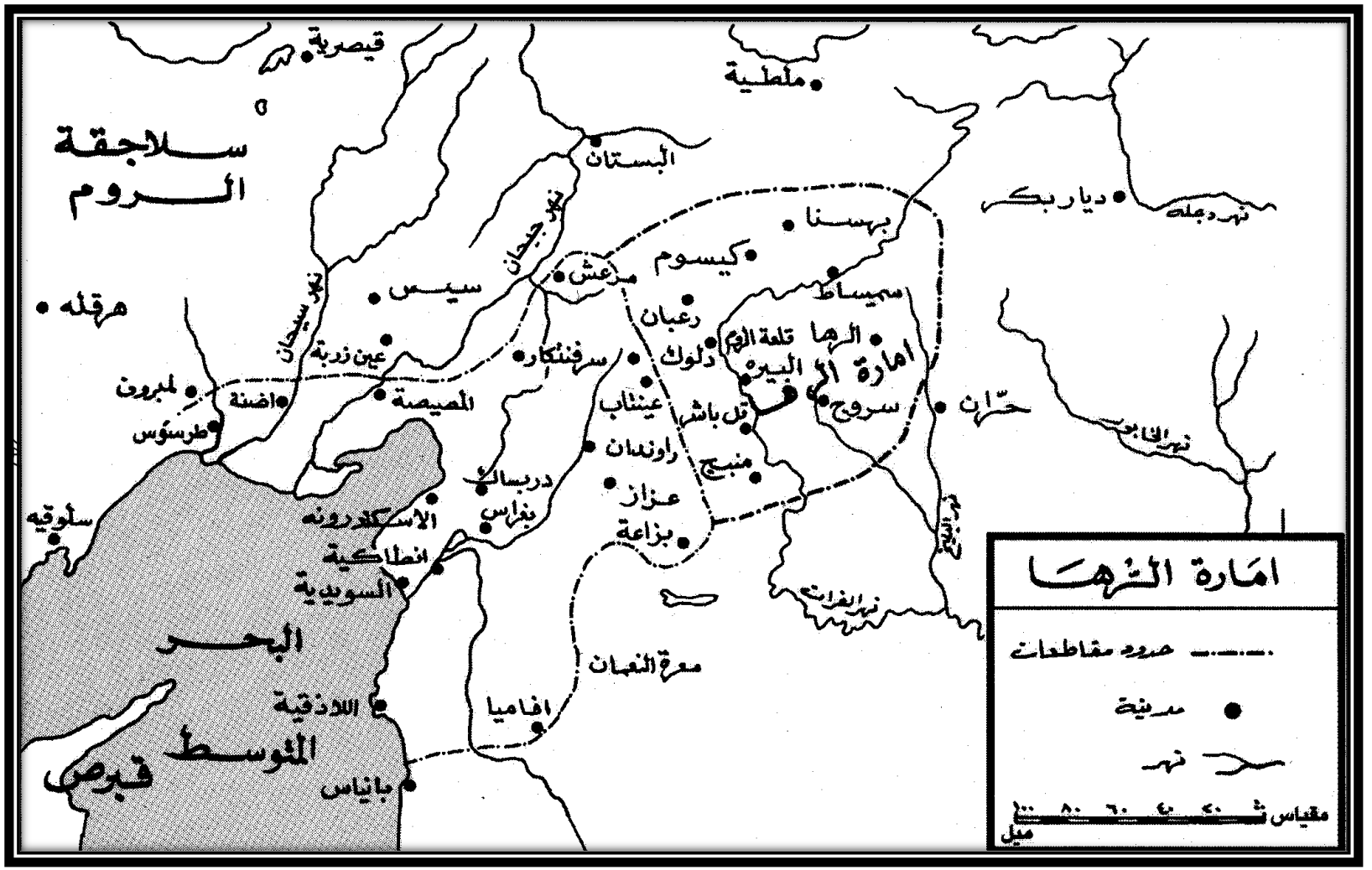
سلاجقة الروم
قيصرية
ملطية
البستان
نهر جيحان
نهر سيحان
سيس
مرعش
بهسنا
كيسوم
سميساط
ديار بكر
نهر دجلة
مرقله
رعبان
الرها
قلعة الروم
البيرة
امارة الرها
دلوك
سرفندكار
عين زربة
المصيصة
لمبرون
اضنة
طرسوس
عينتاب
سروج
حران
نهر البليخ
تل باشر
راوندان
منبج
دربساك
بغراس
عزاز
بزاعة
سلوقيه
الاسكندرونه
انطاكية
السويدية
البحر
المتوسط
قبرص
اللاذقية
معرة النعمان
افاميا
باناس
نهر الفرات
امارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل

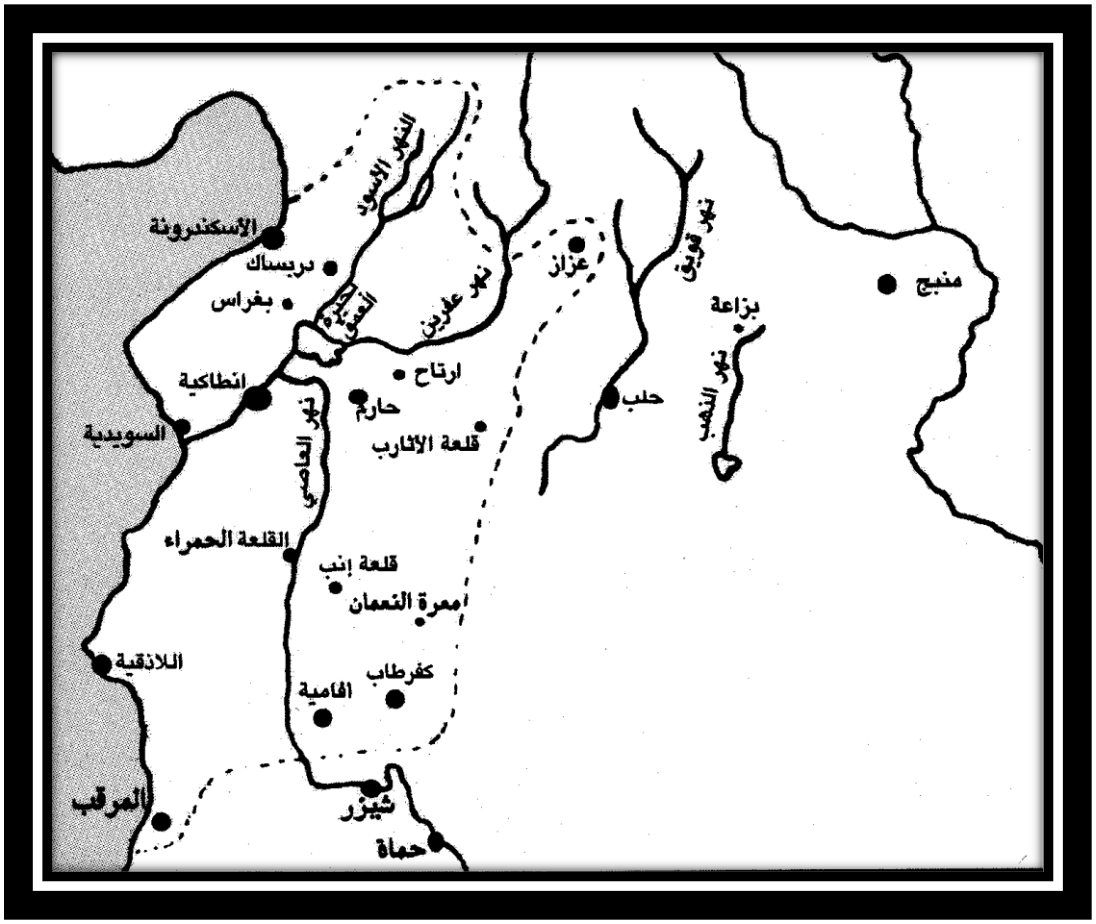

أمارة أنطاكيــا

جي دي لوزينيان ملك بيت المقدس الذى أسره صلاح الدين بمعركة حطين

تجهيزات الفارس بجيش صلاح الدين

تجهيزات الفارس الصليبى

السيف المستقيم ـ الترس المخروطى ـ الرمح ـ فأس القتال كبير ـ فأس قتال صغير ـ خنجر ـ قميص الكتان ـ قميص الزرد والخوذة المخروطية